

مشاهرات مسافر :

ألمانيا بعد الحرب

للدكتور محمد سامي الدهان

—•••••—

أجل أعود من جديد إلى هذا البلد الواسع الكبير ، بحرقى أسران ؛ فأتنا أسمى في جمع تراثنا المخطوط من مكتبات ألمانيا الشرقية في غنى ، الموزعة في نظام . وأنا أسمى كذلك في أن أنعرف إلى الأساليب الحديثة في كل شيء : في المعرفة والحياة ...

كان على أن أسجل « القديم » وأن أرسنه حيث كانت ألمانيا أمة تتهر لذكرها أمم ، فيهم من يرى عندها المثل الأعلى والغاية القصوى ، وفيهم من يكفر بمحاضرتها ويطلق في ذمها . كان على أن أسجل هذه الزيارة الطويلة الواسعة من أقصى حدود الراين ، بطاحه وبحوده ، حتى راين ؛ ومن هذه العاصمة حتى لينغ ومونيخ

لكل حادث من هذا القليل ، فقد أثننا بين القوانين متراساً بشكل رعب متبادل بينهما (قوة الجند من جهة وثورة الرعاع من جهة أخرى) . بهذه الطريقة تبقى قوة الشعب الدمياء سنداً لنا . ونحن وحدنا نجهزها بقائد ، وبالتالي ندرّبها في الطريق الذي يؤدي إلى هدفنا .

(لا تستغرب إذا قيل لك إن معظم الحروب والثورات ، ولا سيما الأخيرة منها نشأت من جراء مكاييد صهيونية) .

بند ١٣ — (يقول الزعيم القائم في مؤتمر الحسكاء الشيوخ) قد بلوح لكم أن الجوبيم يقومون علينا في يوم من الأيام إذا أحسوا بما هو جارٍ من استعداداتنا قبل أن يحين الوقت الملائم لإعلان حكومتنا . أجل . ولكن عندنا في الغرب ضد ثورتهم مناورات رهيبية تتصدع فيها القلوب الحديدية — المناجى الحفية والسكك الحديدية تحت الأرض إلى غير ذلك من السرايب تمتد قبل مجيئ الوقت المنتظر تحت المواسم والحواسر . فن تحت الأرض تنسف هذه المواسم والمدن فتتفص في الهواء وتندثر كل أنظمتهم وسجلاتهم الخ . وفي مقال قادم خطتهم في الصحافة .

نفور الحداد

ونور برغ ، فالغابة السوداء وتوبينكن ونهر الراين ؛ في شهور عصيبة من عام ١٩٣٨ ، والعالم يضع أبواباً لحدوده ويخترع الأفعال من ورائها ؛ فكان لأنباء الحرب هلع في القلوب وجزع في النفوس وبار في الرماد ، وحمم توتوب ، ودنيا ترنجف ، وآمال تبنى ، وأمان تنهد . كان على أن أصف كيف كانت تخوض ألمانيا حرب الأعصاب في الدعاية لجنسها والاستجابة لمرقها والجمع لشماتها .

وكنت وأنا أعبر الحدود البلجيكية الألمانية أقرأ في صحف باريس أن القوم أعلنوا التجنيد وجمعوا الصفوف وأنهم على أبواب حرب ، وقد أقسموا أن يقفوا بين رغبة ألمانيا واستلاب السوديت . وما من شرقي عربي يستطيع أن يزل من القطار عشرات المرات ، وأن يلبس القناع الواق عشرات المرات ، وأن يتعمق في سفره على الاستعداد مع القوم لحرب عصيبة ، فلا يهتز له جنان ، ولا يرتجف له قلب ! فقد تاملت الحرب عن الأدب ، وجربت النضال عن السكتب ، فاست أفهم فتاة تحرس النفق ، وامرأة تقتش المارة ، وأخرى تحمل السلاح . واست أفهم كيف يؤمن عشرات من الملايين بالحرب في القرن العشرين ، يتقدمون إلى النار في ثور باسمة وقلوب هائجة ، لا يسمعون إلا لصوت واحد في زحمة الأصوات ، ولا يتلفتون إلا لنداء واحد في جلبة النداءات .

كان على أن أصف ما شهدت من اجتماع راين ، وما سمعت من الأقطاب الأربعة من خطب موتيج ، وما كان فيهما من تأخير الحرب عاماً كاملاً . ولكن هذا كله غدا في التاريخ ، وانطوى في الحقب ، ونحدث عنه الناس فأكثرنا ، ووصفه الكاتبون الغربيون فأسهبوا . وأمل لي درجة إلى حين يحلو الكلام فيه .

أما الآن ، وقد هدا غبار المعركة الصاخبة ، وسكنت ثورة الماسفة الجائعة ، فقد أحببت أن أعود من جديد إلى هذا البلد القديم لأرى القوم في حال غير الحال ودنيا غير الدنيا .

وان يكون السفر عن سبيل سفارة ألمانية وقنصلية جرمانية ، فقد تولى الحلفاء الأربعة في كل عاصمة منح الإذن لمن له أن يطلب المرور . وفي باريس على مقربة من ساحة « التروكاديرو » شارع ضيق طويل على البناء الأوسط كتابة عريضة تملأ عن موقع « مصلحة الأمور الألمانية والنمسية » . فإذا دخلت فستري الضابط الإنكليزي والأميركي والفرنسي يتجاورون في غرفة واحدة ويتجاورون في لثة واحدة ، تنتقل من مكتب إلى مكتب ، وأنت تنتقل بين شارات ونجوم فلا تجد أثراً للسلطة الرابعة ، لأنك

بالغاية السوداء ، ونحن نجتازها ، نمر بين صفوف من أشجار كثيفة عالية ، وقد شق القطار طريقه بينها ، متلوياً في سحر لا ينسى وفئة لا تزول ، هي كل زاد المسافر في المسافرة اليوم .

فلما أظلم الليل انتشاني النوم انتشالاً وما أيقظني إلا صوت هذه الجوع الفغيرة في المحطات ، فظننت أنه العيد ، فنحن في يوم أحد ، وقد عرفنا الألمان من قبل يمدون الأعياد عندها والآحاد فرصتها ، فهم يرحلون من قرية إلى قرية لا يستقرون ولا يقيمون ، ينتقلون في مجال الطبيعة ، يقطعون نمرة الأسبوع ، يلتجئون موانع الزهر والمطر ، والجبل الشرف ، والنهر الغني ، ولكن رفيق في السفر أفهمني أن الألماني يسافر إلى الريف يوم الأحد من كل أسبوع في اصطلياد البطاطس وانتشالها من التراب ، فالأرض أم لا تؤمن بذهب ، ولا تدب سياسة ، والبطاطس بعض الغذاء قبل الحرب وكل الغذاء بعد النكبة ؛ فلا بأس في أن يمد الألماني أكياساً واسعة يجمع فيها كل ما تصل إليه يده في السوق السوداء طعاماً لأسبوعه .

بلغنا محطة نويينسكن ، فنزلت بين هذه الجوع المتراصة التي كانت ترقب القطار منذ الليل ، فأخذت سبيلي في يسر غريب ؛ ذلك لأن للاجنبي سبيلاً غير سبيل المواطن . غير أن المسر كل المسر في أن نجد من يحمل الحقايب إلى المنزل ، فقد طفت أبحث في المحطة عن حملها وكنت أظنهم كثيرين لرداءة اللباس وفقر المظهر ، فلم يقبل على منهم أحد ، فلما أقيمت عليهم أعرضوا جميعاً ، ولما لجأت إلى تفسير وشرح ، وجدت من يرضى بلغائف للتبغ جزاء ، ففهم وحدها الرائجة وهي وحدها العملة النادرة . وأخذت سبيلي إلى المنزل ماشياً ، فليس من عربات أو سيارات ولن أطمع فيها بعد الذي رأيت .

وعزفت عن التفكير إلا فيما جئت له ؛ فأنا أزور ثالث مدينة جامعية على « الراين » بمدبون وهابديلغ ، بل هي تحتاز عنهما بأنها من مهود الاستنراق ، فقها ما ليس في الجامعاتين من مخطوطات عربية نفيسة ، فقها المثني وأبو فراس وابن وحشية ، وفيها ليمان و « بور » وفايفاييلر من مشاهير المستعربين فلا أقل من أن أقوم أياماً أستعيد بين القداي والمحدثين ذكرى عاطرة ؛ وأقوم بالتحية الطيبة قبل أن أرحل إلى الدير ...

سامي الرهاص

نستطيع أن نقصد إلى أية منطقة إلا البلد الحرام ؛ حيث ركز الروس أعلامهم ، وبسط السوفيت ظلالهم . فإذا كنت تلح في الزيارة فاذهب إلى براين وهناك تستشير من يدم الحل ، فيمنحون الأذن أو يحرمون ..

يا لله ما أعجب الدنيا تقبل في أعوام عشرة فكأنها ما كانت ، وتغير في سنين فكأنها ما وجدت ، يزورها المرء وهي بستان جامع وهضاب نضرة وبلدان عامرة ثم يعود إليها فإذا هي جرداء قائمة وأكوام من أحجار حتى ليخيل إليه أنه يزور بلاداً أصابها الزلازل ، أو انهارت عليها البراكين ، أو تقادمت عليها القرون ومسحت عليها المصور ، فيحسب أنه يزور مدينة أثرية يتلس في جنباتها التاريخ ويقرا من خرائطها العبر . ذلك أول شعور يس المرء حين يجتاز نهر « الراين » ، ويمر الحدود . بل لعله وهو يتنقل في قطار نغم من ربوع الأثراس يكذب الخارطة بين يديه ويهم نفسه بالجهل بالجغرافية فلا العالم معالم ولا الحدود حدود .

واستقبلنا على الحدود جنود المانيون في لباس نازي قديم بال لأنهم لا يملكون سواء ، وأقبلوا يفتشون الحقايب ، فما ينفكون يفتشونها وينقلونها ، فيفتشون عيونهم للمنظر الجميل من ما كل لم يمر فوا طعمه منذ حين ، ولباس لم يمر فوا لمسه منذ أمد ، ثم يطبقون الميون على قذى ويشكروا المسافرين ، ويحيلونه إلى السلطة المحتلة ، فتوزعه السلطة في قطار من القطرات . وإن يشكو المسافر من القطار الذي يحمله والتمن الذي يدفمه ، فله الدرجة الأولى والثانية ، يمرح فبهما كما يشاء . وفي الثالثة سكان البلاد يتكدسون وقوفاً ، ويتملقون بأطراف القطار وسلاسلها ، كما يتملق غلمان القاهرة بأطراف حافلات الترام سواء بسواء . وسيمجب الأجنبي للألماني كيف يحيا اليوم ، فهو يقطع الخبز الأسود الكبير اقمة بعد اقمة هي كل غذائه الذي رأته في يومين اثنين من رحيل القطار ، ويرى مناظر لا تصدقها عيناه . هذه امرأة مرضع نامت على جدار القطار وهي تحتضن وليدها ، وهذا شيخ سكت رفاقه عن استبداده في الجلوس بالمر فنام جالساً ؛ وهذا شاب بلغ المحطة التي إليها يقصد وهو يعرف أنه بلنها لكن القوة خاتمه والجوع خذله فإله حيلة في قيام ولا قعود ، فأثر البقاء ، وما ينتظر القطار الجياع ! ...

أما أنا فقد نمت من مشاهد البشر ، وعدت إلى مكان من العربة أنطلق بالطبيعة فهي أم روم وحسناء وفيه ، أمتع النظر